مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies
@Tafsircenter

ثلاث محاضرات حول القرآن

(٣): القرآن اليوم،

لماذا نترجم ما لا يقبل الترجمة؟

www.tafsir.net

شتيفان فيلد Stefan wild

ترجمة : حسام صبري

مقدمة:

في هذه المحاضرة الثالثة والأخيرة من محاضرات شتيفان فيلد التي ألقاها في معهد دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفرد عام ٢٠١٠م، يتناول فيلد مسألة «ترجمة القرآن»، حيث يتساءل عن مدى قابلية القرآن للترجمة؟

ينطلق فيلد في نقاشه هذا الإشكال من سؤال حول ما يتم ترجمته في النصّ، حيث من يرى أن ما يترجم في أيّ نصّ هو فقط معناه لا يرى إشكالًا في كفاية ترجمات القرآن، طالما أنها تؤدي معناه وتنقله للغة المترجم إليها، أما من يرى أن النصوص الفريدة فيها دومًا ما هو أكثر من المعنى، فيرون أن الترجمة لمعاني القرآن غير كافية ولا يمكن أن تكون بديلًا للنصّ؛ لذا فهم يصرّون على تسمية ترجماتهم بـ«ترجمة معاني القرآن» أو بـ«تفسير القرآن»، تأكيدًا منهم على أن هذه الترجمة ليست «قرآنًا».

ومن الممكن تقسيم محاضرة فيلد إلى جزأين؛ الجزء الأول يتناول فيه فيلد نشأة إشكال ترجمة القرآن، والتي ابتدأت أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ومن اللحظات الحاسمة في هذا السياق -وفقًا لفيلد- مرسوم «١٩٢٤» الذي أصدره مصطفى كمال أتاتورك، حيث ترجم القرآن للتركية، كما كتبت الترجمة بحروف لاتينية في محاولة منه لتهديد موقع اللغة العربية في العالم الإسلامي -وفقًا لفيلد-، فربما يكون صنيع أتاتورك وعلاقته وما أثاره من ردود فعل في العالم العربي الإسلامي تجاه الحركة الكمالية من أول النقاشات الحديثة حول لغة القرآن وحول ترجمته، إلا أنّ الترجمات كثرت بعد هذا الوقت، لأسباب يرجعها فيلد إلى انتشار الطباعة في العالم العربي،

وإلى إدراك القيادات الإسلامية لعدم تمكن غالبية المسلمين من القراءة بالعربية.

بعد هذا ينتقل فيلد في الجزء الثاني من المحاضرة لتناول إشكالات الترجمة ذاتها، وأثرها على النصّ، وما يضيع من النصّ أثناء ترجمته، وبعض الترجمات التي قام بها مسلمون مثل محمد بكتال ومحمد أسد ونعيم جوزيف داوود وطريف الخالدي، وحتى بعض الأخطاء في بعض الترجمات للقرآن، وأسبابها، وكذلك يتناول المعضلة الناتجة عن كون العولمة ذاتها تفرض وجود ترجمات عديدة للقرآن، مع عدم التوفّر على اتفاق حول القضايا الرئيسة إلى الآن، كذلك ضعف الكثير من المستشرقين في العربية، وضعف كثير من مترجمي القرآن المسلمين العرب في اللغات التي يترجمون لها.

أما بخصوص السؤال الذي انطلق منه فيلد حول ما يتم ترجمته في النصّ، فإنه وفي نهاية محاضرته ينحاز إلى الرأي القائل بأن ما يترجم في النصّ ليس فحسب المعنى، فثمة أبعاد أخرى للنصّ تستعصي على الترجمة، بالنسبة للقرآن؛ فإن الأبعاد الجمالية والشعائرية تكاد تختفي تمامًا مع الترجمة للغة أخرى.

ففيلد ينهي محاضرته بأبيات لفريدريش روكرت عن القرآن، يترجمها للإنجليزية، ثم يتلو نصّها الألماني، ويقول بأن سحرها قد ضاع تمامًا في الترجمة، وهذه أبيات شعرية، فربما هذا يؤكد -كما يقول- استحالة وجود ترجمة للقرآن تفي بحقه.

المحاضرة[١]

يدور حديثنا اليوم عن ترجمة ما لا يقبل الترجمة، وكما حاولتُ أن أبين في محاضرة أمس[٢] أن العلاقة بين اللغة العربية والقرآن شديدة الوثاقة. وحين نعمد إلى ترجمة القرآن ونزعه من سياقه العربي فلا شك أن هذا أمر مشكل ومسعى مثير للجدل، بيد أنه في الوقت ذاته أمر لا مناص منه، خاصة إذا أراد المسلمون أن يبقى الإسلام دينًا عالميًّا.

لا بد لنا من التمييز بين تلاوة القرآن من جانب ونشر الكتاب المقدّس على الجانب الآخر، وسوف أتناول هذا الأمر في الجزء الأول من المحاضرة، ثم أستعرض أثر الترجمة في ضياع بعض النواحي القرآنية، وأود في الجزء الثالث تحليل سياسات ترجمة القرآن والسبب وراء نظرة العديد من المسلمين بعين الريبة والشكّ إلى الترجمات التي يقدمها غير المسلمين، وفي الختام سوف أحاول استعراض بعض الأخطاء الشائعة في ترجمة القرآن.

ينبغي أن يكون واضحًا من البداية أن أي تحليل لترجمات القرآن الحديثة سوف يُلقي الضوء على الانشقاقات داخل الصفّ الإسلامي نفسه، وقد تجلى لي هذا الأمر حين قُدّر لي الاطلاع أول مرة على نصّ الترجمة القرآنية إلى اللغة الألمانية.

---

(١) كنّا قد أشرنا سابقًا في ترجمة المحاضرة الأولى لفيلد «تاريخ القرآن، لماذا لا نحرز تقدمًا؟» أن ثمة بعض المواضع التي تعذّر علينا سماعها أثناء تفريغ المحاضرة، وأننا قد أشرنا إليها في الترجمة بنقاط موضوعة بين أقواس (...)، ويحسن التنبيه هنا لكون هذه المواضع فيها زيادة في هذه المحاضرة عن سابقتيها، لا سيما الجزء الذي دار فيه الحوار بين فيلد والباحثين، حتى إنه شمل أحيانًا بعض الأسئلة المطروحة على فيلد من قِبَل بعض المستمعين حيث لم نتبيّن السؤال المطروح.

(٢) يشير فيلد هنا إلى محاضرته «لغة القرآن، هل العربية لغة مقدسة؟»، المحاضرة الثانية من محاضراته الثلاثة، وهي مترجمة على قسم الترجمات بموقع مركز تفسير، على هذا الرابط: https://bit.ly/2SsDNez.

حين شرعت في تعلم اللغة العربية في ميونخ في خمسينيات القرن العشرين كانت نسخة الترجمة الوحيدة للقرآن من العربية إلى الألمانية الموجودة في ألمانيا والأجزاء الناطقة بالألمانية في أوروبا من إصدار الطائفة الأحمدية في سويسرا. وقد حملت المقدمة المطولة لهذه الترجمة توقيع ميرزا محمود أحمد[١] الذي وافته المنية عام ١٩٦٥م، وهو رأس الطائفة الأحمدية والخليفة الثاني للمسيح الموعود، وقد عاش آنذاك في باكستان.

والأحمدية -كما يعلم الكثير منكم- حركة إصلاحية تؤمن بالمسيح الموعود، وقد نشأت في القرن التاسع عشر في الهند. وتمزج الأحمدية بين الأفكار الحداثية والصبغة الصوفية. وقد وقع انقسام في هذه الطائفة حين ادعى أحد أفرادها النبوّة. وهو ادعاء بناه على آية من القرآن. هذا وقد وصل دعاة الطائفة الأحمدية إلى ألمانيا سنة ١٩٢٠ تقريبًا.

أسست الأحمدية أقدم المساجد الموجودة في ألمانيا في برلين بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٨. وقد نشبت عداوة شديدة بين الإسلام السني والأحمدية؛ وعلى إثر تصاعد التوتر والضغوط التي مارستها الحكومة الباكستانية اضطرت الأحمدية إلى نقل مركزهم الرئيس من باكستان إلى لندن عام ١٩٨٤.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأحمدية محظورة اليوم في باكستان والمملكة العربية السعودية وتتم ملاحقة أنصارها. وينظر إليهم المسلمون في عدد من الدول الإسلامية بعين الريبة والشك. وقد كتب إمام الأحمدية في مقدمة الترجمة الألمانية للقرآن يقول: «لقد أمر الله تعالى نبيه أن يخوض هذه المعركة الضارية

(١) ميرزا محمود أحمد، (١٨٨٩- ١٩٦٥)، هو ابن ميزا غلام أحمد القادياني، والخليفة وفقًا لاعتقاد الطائفة الأحمدية، له تفسيران للقرآن، الكبير والصغير، وكلاهما يقع في عشرة أجزاء، واهتم بترجمة القرآن للّغات الأجنبية، وصدر عن الطائفة الأحمدية عدد من هذه الترجمات في عدد من الدول الأوروبية.

متسلحًا بالقرآن الذي هو أعظم سلاح. واستجابة لهذا الأمر ظهرت هذه النسخة من الترجمة الألمانية للقرآن».

وقد تولى الترجمة الفعلية للقرآن الكريم إلى اللغة الألمانية مجموعة مجهولة الهوية من المهاجرين الألمان في لندن إبّان الحرب العالمية الثانية تحت إشراف الخليفة الثاني للمسيح الموعود، والذي لا يجيد اللغة الألمانية.

وفي ذلك الوقت كان عدد المسلمين في ألمانيا وسويسرا والنمسا ضئيلًا جدًّا، وقد أحزنهم أن تكون النسخة المتاحة بين أيديهم من القرآن الكريم ترجمة ألمانية بعيدة كلّ البعد عمّا استقرّ عليه الإسلام السني. هذا وقد تميزت الطائفة الأحمدية في أوروبا بالمشاركة المجتمعية وممارسة الدعوة دون أن ينقصها الأفكار الليبرالية، ونجحت في إقناع عدد من الألمان باعتناق الإسلام.

لعلّ من بين العقائد الأكثر إثارة للدهشة التي يؤمن بها أنصار الطائفة الأحمدية عقيدة تستند إلى الآية (٥٠) من سورة المؤمنون (٢٣)، حيث يعتقدون أن المسيح عيسى بعد أن وُضع على الصليب انتقل إلى بلدة سرنجار في الهند ومات بها عن عمر يناهز ١٢٠ عامًا. وإذا اتبعنا الترقيم الأحمدي لآيات القرآن وَسُوَرِهِ نجد أن هذه هي الآية رقم (٥١) من سورة المؤمنون وليست الآية رقم (٥٠)، وهذا الترقيم الأحمدي للآيات القرآنية والخروج الممنهج عن النظام المعتمد قد أثار عاصفة من الانتقادات اللاذعة للأحمدية هبّت من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، واعتُبرت نسخة القرآن التي تعتمدها الطائفة الأحمدية بمثابة إعلان حرب على المرجعية الإسلامية السنيّة، ليس فقط في الجالية الإسلامية الصغيرة في ألمانيا والدول الناطقة بالألمانية؛ بل في جميع أنحاء العالم.

ننتقل إلى الحديث عن تلاوة القرآن بالعربية وقضية الترجمة وما تعلق بها من إشكالات، فحين نعود إلى عصر صدر الإسلام حيث عاش النبيّ نجد القرآن يُتلى

في الشعائر وغيرها بالعربية دون غيرها من اللغات، وكانت قراءة القرآن هي عماد الصلاة، وقراءة الفاتحة ركن من أركانها، ولا تُقرأ إلا بالعربية. لكن مع اتساع الدولة الإسلامية في القرون الأولى ظهرت آراء متباينة، على رأسها رأي اثنين من المرجعيات الإسلامية السنيّة التي حظيت بقبول واسع وكانت محلّ تقديرٍ كبيرٍ بين المسلمين، فإذا كان الشافعي (المتوفى عام ٨٢٠ ميلادية) يقول بوجوب قراءة القرآن باللغة العربية حتى تكون الصلاة صحيحة فإن أبا حنيفة (المتوفى عام ٧٦٧ ميلادية)، والذي لا يقلّ شهرة، يجيز للمسلمين الجدد ممن لا يعرفون العربية القراءة في الصلاة بلغة أخرى؛ إذ كيف يمكن لمن أسلم للتوّ أن يتواصل مع الله بلغة لا يجيدها ولا يفهمها؟! لا ندري على وجه اليقين ما إذا كان هذا هو المنطق الذي استند إليه أبو حنيفة فيما ذهب إليه من اجتهاد، لكن على أية حال فإن أبا حنيفة يرى أن قراءة «السورة الأولى» الفاتحة في الصلاة باللغة الفارسية لا يبطلها، وقد رجح رأي الشافعي في نهاية المطاف لعوامل تتعلق بالزمان لا بقوة الحجة، أما كون القارئ لا يعي ما يتلوه فلم يكن له كبير الأثر في هذا الصدد.

لقد قضيتُ فترة من عمري كخادم للمذبح في حقبة الأربعينيات في الكنيسة الكاثوليكية، وأذكر الشعور السحري الذي انتابني حين كنت أتلو عبارات الاعتراف بالخطايا باللغة اللاتينية في افتتاح القدّاس الإلهي، لم أكن أفهم الكلمات اللاتينية لكن هذا لم يقلل من سحر الكلمات، بل أضفى عليها سحرًا، ولا شك أنها ميزة لأي طائفة دينية أن يكون لها لغة خاصة بها. وبالنسبة للمسلمين فإن العربية تمثل لهم ما تمثله اللاتينية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ أكثر من ألف عام. وفي ضوء حقيقة أن القرآن يربط بين الحرف العربي والمصدر الإلهي للنصّ القرآني فيسهل علينا إذن أن نفهم السرّ في ضرورة تلاوة القرآن بالعربية وحدها دون غيرها من اللغات.

حينما حمل مصطفى كمال أتاتورك لواء الحداثة وأصدر مرسومًا عام ١٩٢٨ يحتم أن يكون الأذان باللغة التركية بدلًا من العربية أفضى هذا إلى تهديد المقام الذي تنفرد به اللغة العربية بشكلٍ غير مسبوق، وقد ذهب أتاتورك إلى أبعد من ذلك فأمر أن تُطْبَعَ الترجمة التركيّة للقرآن بالحروف اللاتينية بدلًا من العربية، وذلك بعد تحويل أحرف الأبجدية التركية العثمانية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، وقد أثار هذا جدلًا واسعًا داخل تركيا وتجاوزها إلى خارج العالم الإسلامي، لكن ذلك لم يمنع ضياء كوك ألب (المتوفى سنة ١٩٢٤) أن ينظمَ قصيدة ابتهاجًا بهذه الخطوة التي أقدم عليها أتاتورك، تحتوي على السطر التالي، وأنا أقتبس: «الأرض التي يُتلى فيها الأذان من المسجد باللغة التركية، الأرض حيث قرأ القرآن في المدرسة باللغة التركية. هذه، يا بن الأتراك، هي أرض والدك».

وقد رأى جُلّ المسلمين في هذه الهجمة التي شنّها أتاتورك على القرآن امتهانًا وتدنيسًا، ونتيجة منطقية لإلغاء الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤. هذا الانفصام الصارم مع التاريخ الإسلامي العثماني قد جعل الكثير من المسلمين يرون في الحركة الكمالية بنزعتها القومية والعلمانية الحداثية خطرًا عظيمًا يتهدد الإسلام، يتجاوز خطر الشيوعية أو الاشتراكية القومية.

لقد لاذ الشيخ مصطفى صبري بالقاهرة طلبًا للّجوء السياسي عام ١٩٢٦، وكان بمثابة شيخ الإسلام للدولة العثمانية آنذاك في إسطنبول. ومن منفاه في مصر هاجم مشروع التتريك لمصطفى كمال أتاتورك، وبخاصة تتريك القرآن الكريم، ودخل في نقاش مشهود اتسم بالعنف مع الشيخ محمد مصطفى المراغي -كبير الحنفية- حيث يتبنى الحنفية رأيًا مخالفًا في مسألة جواز ترجمة القرآن غير ما ذهب إليه جمهور الشافعية. وبعد أن أقدم أتاتورك على تحويل أحرف الأبجدية

التركية العثمانية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، اتهم مصطفى صبري بعض المفكرين المصريين بالإعجاب بصنيع أتاتورك من استبدال الحروف العربية، واتهمهم بمحاولة إقناع العرب المسلمين بقبول هذا الأمر.

لا صلة لذلك بمسألة الترجمة، وإنما بمسألة نقل حروف العربية إلى لغة أخرى. وقد انتقد مصطفي صبري سياسة كمال أتاتورك علي صعيد اللغة من الناحية الدينية، وأيده في هذا النقد رشيد رضا المفكر السوري المصري البارز (١٨٦٥- ١٩٣٥)[١] في ذلك الوقت، فأن تحلّ نسخة تركية من القرآن محلّ الأصل العربي مسألة أخرى لا تجوز في الأساس، بخلاف قضية ترجمة القرآن إلى لغة أخرى بهدف التعريف بمحتواه. وبشكلٍ عام، لم تحظَ ترجمات معاني القرآن إبان انتشار الإسلام في القرون الأولى بنفس الأهمية التي حظيت بها ترجمات الإنجيل إبان نشر المسيحية.

ورغم ظهور الترجمة الفارسية والتركية منذ القرن العاشر، إلا أن الزّخم الكبير لترجمة القرآن لم يظهر إلا في القرن التاسع عشر، ومردّ ذلك في تصوري إلى عاملين: النجاح الذي حققته الصحافة المطبوعة في العالم الإسلامي، علاوة على إدراك القيادات الإسلامية أنه من غير المنطقي أن نتوقع من الغالبية العظمى من المسلمين أن يتعلموا العربية حتى يفهموا القرآن.

(١) محمد رشيد رضا (١٨٦٥- ١٩٣٥)، سوري مصري، اتصل في شبابه بالشيخ حسين الجسر، الذي أجازه في عام ١٨٩٧ لتدريس العلوم الشرعية، سمع عن الأستاذ محمد عبده أثناء نزول الأخير في بيروت حين تم نفيه بسبب صلته بالثورة العرابية، والتقى به في مصر بعد أن رحل إليها للاتصال بالأستاذ الإمام، يعدّ رضا من أهم تلاميذ الإمام، وقد أسس مجلة المنار التي صدر عددها الأول في ١٨٩٨؛ لتكون وسيلة من وسائل الإصلاح الديني والاجتماعي، وكان أحد أبوابها مخصصًا لنشر تفسير الإمام محمد عبده -وهي دروس التفسير الشفهية التي كان يلقيها الإمام في جامع الأزهر، ثم يحررها رشيد رضا، ويضيف لها من فكره ومن كتب التفاسير، ويراجع الإمام ثم تنشر-، وهو الذي أتم تفسير الإمام المعروف بـ«المنار»، حيث انتهى فيه محمد عبده إلى سورة النساء، وأكمل رضا -كما يقول- على منهجه حتى سورة يوسف.

تجدر الإشارة إلى أنّ كثيرًا من علماء المسلمين لديهم قناعة راسخة أن أي ترجمة للقرآن ستفقده روحه وأهم سماته. وما يقال عنه أنه ترجمة للقرآن محال أن يكون كذلك، محال أن يكون «قرآنًا»، فلا شك أن أي ترجمة مهما كانت جودتها لن تفي القرآن وإعجازه حقّه. فمبلغ أي ترجمة أن تكون محاولة تفسيرية لا أكثر، وهذا ما يراه كثير من علماء المسلمين حتى يومنا هذا، ومن ثم فإن غالبية ترجمات القرآن التي وضعها المسلمون بروّية وحذر لا تصرّح بأنها ترجمة للقرآن ذاته، وإنما لمعاني القرآن. وغالبًا ما يُوضع النصّ العربي مع الترجمة لبيان أن النص العربي وحده هو القرآن، ويكون عنوان هذه الترجمة «القرآن وتفسير معناه باللغة الإنجليزية»، ويأتي هذا التفسير بالإنجليزية ركيكًا بعض الشيء، لكنه يعكس تمامًا الإشكالية التي نواجهها.

ولو أن ترجمة إسلامية جعلت عنوانها «القرآن» دون إشارة إلى معاني القرآن، ولم تضع النصّ العربي كاملًا بجوار الإنجليزي، فهذا معناه أن المترجم يتبنى وجهة نظر متحررة بعض الشيء.

وفي المقابل عند النظر إلى الترجمة الشهيرة التي لاقت قبولًا واسعًا، وأعني ترجمة آرثر آربري (١٩٠٥-١٩٦٩)[١]، نجد عنوانها «The Koran Interpreted»

(١) آرثر جون آربري (١٩٠٥- ١٩٦٩)، مستشرق إنجليزي ولد في بورتسموث، وقد حصل على منحة في دراسة الكلاسيكيات، فدرس اليونانية واللاتينية في جامعة كامبريدج، وحصل على البكالريوس من كلية برمبوك، توجه لدراسة اللغات الشرقية بتوجيه من أستاذه منسن، ودرس العربية على يد ألن نيكلسون، وكانت زمالة آربري بالقاهرة، وقد عين رئيسًا لقسم الآداب بالجامعة المصرية «جامعة القاهرة». اهتماماته الرئيسة تركزت في التصوف الإسلامي وفي الأدب، ففي ١٩٣٥، نشر كتاب «المواقف والمخطابات» للنِّفَّري، وترجمه للإنجليزية، كما عمل على فهرسة المخطوطات العربية والفارسية، وترجم عددًا من أعمال الشاعر والمتصوف والفيلسوف الهندي محمد إقبال، وتعتبر المهمّة الأبرز التي قام بها أستاذ اللغات الشرقية ورئيس كرسي اللغة العربية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية وأستاذ كرسي توماس آدمز في جامعة كمبريدج، هو ترجمته للقرآن إلى اللغة الإنجليزية، فقد ابتدأ مشروعه بترجمة آيات مختارة من القرآن في الخمسينيات، ثم أصدر ترجمته المفسرة عام ١٩٥٥، بعنوان «The Koran Interpreted» في مجلدين.

أو «تفسير القرآن»؛ مما يعكس استجابة واضحة لما تقتضيه الحساسية الإسلامية، يقول آربري في مقدمته: «لقد أسميتُ ترجمتي تفسيرًا تماشيًا مع الرؤية الإسلامية المعتمدة من أن القرآن مثله مثل سائر الروائع الأدبية لا يقبل الترجمة».

لقد أخبرني نصر أبو زيد -صديقي والذي جاء ذكره في المحاضرة الثانية- أنه في عام ١٩٩٣ -قبل أن يمرّ بالتجربة المريرة التي صدر فيها قرار المحكمة بتطليق زوجته منه، وَيُرْغَم على الفرار من مصر- حين كان عضوًا في هيئة التدريس بجامعة القاهرة، عُرض عليهم مشروع تقدّم به أحد طلاب الماجستير لكتابة رسالته حول الترجمات الفرنسية للقرآن، وهو الأمر الذي قوبل باعتراض بعض الأساتذة من زملاء نصر بزعم أن القرآن في حدّ ذاته لا يمكن ترجمته، وعليه فمحال أن يُترجم القرآن الكريم إلى أي لغة أخرى، ولا بد من تعديل عنوان الرسالة لتصبح «الترجمات الفرنسية لمعاني القرآن الكريم»، ودار نقاش مطوّل بين أعضاء هيئة التدريس، ثم كان النصر حليف مدرسة ترجمة المعاني. وفي هذا يقول نصر أبو زيد «لقد خُيِّلَ إليّ أن أحد شيوخ الأزهر هو من يتبنى هذا الرأي ويحتج بهذا الأسلوب، إلا أن جميع من ناقشوا هذه المسألة كانوا أساتذة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة القاهرة». وقد أبان في معرض كلامه أن جامعة القاهرة حين تأسست في المقام الأول كان الهدف منها أن تكون نظيرًا لجامعة الأزهر، وهي جامعة دينية.

وحين تعرضنا لقضية الاختلاف بين ترجمة القرآن وترجمة معاني القرآن، إذا به ينظر إليّ مبتسمًا ويقول: «حين تترجم نصًّا فهل يتسع لك المقام في أن تترجم أيّ شيء سوى معناه؟»، وسوف أتطرق إلى هذا الأمر ولكن في نهاية المحاضرة.

وبظهور الحداثة تجلت أسباب أخرى غير ارتياب عموم المسلمين بشأن ترجمة القرآن، كان من أثرها انزعاج كثير من المسلمين حيال الترجمات الأوروبية

التي وضعها غير المسلمين، ولعلّ السبب الرئيس أن جُلّ ترجمات القرآن التي ظهرت قبل حقبة الستينيات في أوروبا كانت من عمل غير المسلمين وحملت عناوين أكاديمية غير إسلامية. وقد ثبت لدى القارئ المسلم في كثير من الحالات أن هذه الترجمات -ولا سيما التعليقات على النصّ- شديدة الإجحاف والتحيّز.

ولعلّ ترجمة ريتشارد بيل (١٨٧٦- ١٩٥٢)[١] للقرآن الكريم التي نشرت عام ١٩١٦ [إدنبرة] من أبرز الأمثلة على ذلك؛ إذ عنون لترجمته بهذا العنوان الفرعي: «Translated with a Critical Rearrangement of the Suras» «ترجمة وإعادة ترتيب نقديّة للسور القرآنية». وفي الواقع، سعى بيل جاهدًا إلى إعادة هيكلة القرآن وفقًا لتأريخ تعسفيّ جعل من القرآن مزيجًا من الآيات المتناثرة بحيث لا يمكن تمييزها، كما أن تعليقات بيل تتسم بنوع من الجرأة على النصّ، ففي السورة (٨٩) «سورة الفجر» والتي تفْتَتَح بِقَسَم إلهي، نرى بيل يقول للقارئ أنه «قسم عبثي». فلا غرو إذًا أن يردّ علماء المسلمين من العرب كي يلفتوا انتباه القارئ إلى اشتمال كثير من ترجمات غير المسلمين على أخطاء فادحة؛ بل يصدق هذا القول كذلك على الوقت الحاضر، خاصة في ظلّ تردي مستوى اللغة العربية لدى كثير من المستشرقين وأساتذة اللغة العربية ببلاد الغرب.

ويبدو أن نصر أبو زيد حين قال أن ترجمة النصّ ما هي إلا ترجمة لمعناه أراد التنبيه على وجود عنصر من التعمية والإلغاز في التصريح بأن ترجمة القرآن أمر مستحيل؛ إذ من البديهي بطبيعة الحال أن تكون ترجمة أيّ نص من لغة إلى أخرى ما هي إلا ترجمة لمعنى ذلك النصّ، وقد يذوب باقي النصّ في الترجمة.

---

(١) ريتشارد بيل (١٨٧٦- ١٩٥٢)، مستشرق بريطاني، أستاذ اللغة العربية بجامعة أدنبرة، له اهتمام كبير بالقرآن؛ حيث كتب حول أسلوب القرآن ومتشابه القرآن، كما أنه اهتم لعلاقة القرآن وعلاقة النبي بالمسيحية، كما أنه ترجم القرآن في ترجمة وإعادة ترتيب (١٩٣٧- ١٩٤١).

ولا جدال في أن الكلمة في اللغة المُترجم إليها لا تفي تمامًا بمعنى الكلمة الأصلية -وقد أوضح الجاحظ، أحد أساطين البيان إبّان الخلافة العباسية- استحالة ترجمة الشعر العربي دون أن يتطرق إلى القرآن، فكان مما قاله: إنّ الشعر العربي يستحيل في حقه الترجمة؛ إذ يتعذر نقله لأي لغة أخرى، فمحاولة ترجمته ستضر بحبكته، فيضيع وزنه ويختفي جماله وتنقضي معجزته. ولا شك أن هذا يصدق على القرآن؛ فإن الإعجاز البلاغي للنصّ القرآني يستعصي على الترجمة.

وهذا يعود بنا إلى الحديث عن السياسات المتبعة في ترجمات القرآن، وكما سبق أن أكدت ثمة قاسم مشترك بين ترجمات القرآن جميعًا؛ فجميعها ترجمات تفسيرية. وبهذا فإن علماء الإسلام الذين لا يرون في الترجمة إلا مجرد تفسير للنصّ الأصلي، ولم تأتِ أي ترجمة بما يخرج عن دائرة رواية من التفاسير القائمة؛ محقون فيما ذهبوا إليه، وأن نصر أبو زيد قد جانب الصواب فيما أبداه.

ولا شك أنّ التفسيرات التي تستند إليها هذه الترجمات لها مقتضيات اجتماعية وسياسية وأخلاقية عميقة الأثر، وهذا الأمر يصدق كذلك على المحاولات التقليدية التي تسعى لنشر ترجمات القرآن، وأبرزها في هذا الصدد مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة.

يأتي هذا المجمع بمثابة الردّ الإسلامي العملي على الجمعيات المسيحية المعنية بنشر الكتاب المقدس، والفارق أنّ مجمع الملك فهد يحظى بتمويل أفضل، ويُعد هذا المجمع مؤسسة ضخمة تضم أكثر من ١٧٠٠ موظفًا، وبحلول عام ٢٠٠٦ كان المجمع قد أتم طباعة ما يربو على (١٣٦ مليون) نسخة من القرآن باللغة العربية، وما يربو على (٢٧ مليون) نسخة مترجمة باللغة الإنجليزية.

وأثناء موسم الحج يُهْدى كلّ حاج نسخة من القرآن، كما يقوم المجمع بنشر ترجمات لمعاني القرآن تكون مصحوبة دائمًا بالنصّ العربي الأصلي، ويتبع

المجمع وزارة الشؤون الإسلامية، ويمثل الإسلام مسألة سياسية بالدرجة الأولى داخل المملكة العربية السعودية؛ فالدين سياسة، ونشر النصّ القرآني مثله مثل الحج، غالبًا ما يأخذ طابعًا سياسيًّا، وكذلك الحال في نشر ترجمات معاني القرآن. وقد أقدم المجمع على خطوة جريئة فعمد إلى ترجمة القرآن إلى لغة الإشارة، وعلى حدّ علمي لم تكتمل هذه الترجمة بعد.

فيما يتعلق بالترجمات الحديثة للقرآن، هناك أربعة اتجاهات يمكن تمييزها:

أولًا: يمثل الناطقون بالعربية بين مسلمي اليوم أقلية في العالم الإسلامي، وهذه النسبة في تراجع مستمر؛ ومعنى هذا أن الغالبية العظمى من المسلمين لا يتحدثون العربية.

ثانيًا: سوف تصبح ترجمات القرآن ضرورية للغاية ويكثر عددها، ويزداد التباين فيما بينها.

ثالثًا: ترجمات القرآن التي أشرف على وضعها المسلمون ستفوق ما قدّمه غير المسلمين.

رابعًا: أقدم غير المسلمين منذ مجيء القرآن على قراءته ودراسته، وسوف يشهد العصر الحديث إقبال الكثيرين من غير المسلمين على قراءة القرآن ودراسته ومحاولة فهمه.

وأود أن أسوق مثالًا في هذا الصدد، لم يكن من المستغرب أن نرى غير المسلمين يقبلون على قراءة القرآن في الإطار العقلي للجدل الديني، ولعلّ أبرز مثال على هذا النهج الملاحظة الشهيرة التي أبداها البابا بندكت السادس عشر في محاضرة له ألقاها بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠١٦ بعنوان «العقيدة والعقل والجامعة»، حيث استشهد بقول إمبراطور بيزنطي ذهب فيه إلى أن القرآن يشتمل على أمور

تفتقر إلى الإنسانية؛ منها على سبيل المثال: حتمية انتشار العقيدة بالسيف. وقد علق البابا باستطراد حول التفاسير الإسلامية في هذا الصدد، فقال: «لا شك إن الإمبراطور يعلم بشأن آية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ التي وردت في سورة البقرة، وهي واحدة من أوائل السور التي تعود إلى المرحلة الزمنية التي كان فيها محمد مهددًا بلا قوة تحميه، كما يروي لنا بعض الخبراء. ومع ذلك فإن الإمبراطور يعلم كذلك قوانين الحرب التي وضع القرآن أحكامها في مرحلة لاحقة».

وأظن أن تعقيب البابا يأتي في إطار الجدل الواقع بين الأديان، بغضّ النظر عما أقدم عليه البابا يوحنا الثالث والعشرون، حين فتح الباب على مصراعيه لأول مرة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية للحوار بين الكاثوليكية والإسلام، وذلك في المجمع الفاتيكاني الثاني.

والآن في عصر العولمة لم يعد القرآن يُقرأ بروح الجدل تلك، فالكثير من المسيحيين واليهود والهندوس والبوذيين والعلمانيين واللا أدريين والملحدين جميعهم ما عادوا يقرأون القرآن لا بوصفهم مؤمنين ولا حتى بروح الجدل الديني.

أضحى القرآن كتابًا يفوق عقيدة المسلم، بل تجاوز الدين؛ إذ بات الناس يتعاملون مع القرآن على أنه ممثل مهمّ للغيبيات التوحيدية في تاريخ ديانات العالم أجمع، فيُقرأ باعتباره مصدرًا تاريخيًّا أو وثيقة أدبية، وفي هذا السياق تصبح ترجمة القرآن أكثر أهمية من الأصل العربي.

أود أن أنتقل الآن إلى محور ترجمات القرآن التي وضعها المسلمون:

كان أول من ترجم القرآن إلى الإنجليزية هو محمد مارمادوك بكتال، بريطاني اعتنق الإسلام وتوفي سنة (١٩٣٦)، ولقد انتقد الترجمات التي سبقته ورأى أنها تنطوي على تعليقات تسيء إلى المسلمين، علاوة على أنها عمدت إلى توظيف

أسلوب لغوي لا يرقى إلى المستوى المطلوب، ويرى بكتال أننا لا نجافي المنطق إن قلنا أن أي كتاب سماوي لن يُعرض بشكلٍ منصفٍ إذا تولى ذلك شخص لا يقرّ برسالته أو عقيدته. وهذا سلوك مفهوم.

هذه واحدة من أولى الشهادات التي تبين أن جُلّ المسلمين يروق لهم ترجمة المسلم ويؤثِرونها على ترجمة غير المسلمين؛ فالقارئ المسلم يفضّل الترجمة الإسلامية، والمترجمون المسلمون يستهدفون بالترجمة القارئ المسلم، وكذلك الحال بالنسبة لغير المسلمين، يستهدفون غير المسلم. وليس هذا الأمر مطردًا بنسبة مائة في المائة، وإنما بمثابة اتجاه سائد.

أقدم اليهود لأسباب سياسية على ترجمة القرآن لا سيما بعد إعلانهم قيام دولتهم عام (١٩٤٨) تحقيقًا لمصلحة خاصّة.

وقد عمد محمد أسد (المتوفى عام ١٩٩٢) إلى ترجمة القرآن، ونُشِرَت الترجمة بعنوان «رسالة القرآن» في لندن عام (١٩٨٠)، وأثنى عليها المسلمون وغيرهم على حدّ سواء. ولد محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) في مدينة لفيف أولويو عام (١٩٠٠)، وكان جده حاخامًا. وفي برلين عام (١٩٢٦) اعتنق الإسلام وأصبح بعد ذلك مقربًا لآل سعود. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية اعْتُقِل محمد أسد في منطقة الهند البريطانية (الراج البريطاني)، بينما لقي بعض أفراد عائلته حتفهم في معسكرات الاعتقال التابعة لألمانيا، ثم تقرر تعيينه بعد الحرب مبعوث باكستان إلى الأمم المتحدة، وتعدّ هذه الترجمة من الحالات الفريدة التي لاقت قبولًا واسعًا يكاد يصل إلى حدّ الإجماع.

صدرت ترجمة نعيم جوزيف داوود في لندن عام (١٩٥٦)، إلا أنها لم تلقَ ترحيبًا؛ إذ لم تراعِ الحساسيات الإسلامية، بل إنّ الطريقة التي ترجم بها المصطلحات الرئيسة، وبعض حواشي الترجمة «انتهكت هذه الحساسيات على

نحو بالغ» مثلما ذكر الدكتور عبد الحليم[١]، وهو أحد مترجمي القرآن الذين ذاع صيتهم وأستاذ بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن.

والآن سأحاول أن أظهر لكم كيف أن الأمر ليس مجرد أمرٍ نظري، سأستعرض معكم ترجمة لآية قرآنية واحدة لنرى مدى الاختلاف بين هذه الترجمات، وسأختار آية من أشهر الآيات القرآنية، إنها الآية الثانية من سورة الفاتحة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وترجمتها كما يلي «Praise be to God, Lord of the Worlds» (وهي ترجمة طريف الخالدي[٢]، الصادرة في نيويورك ٢٠٠٨)، وترجمة طريف من أكثر الترجمات مقروئية. ولا أظنّ أن هناك ما هو أبسط من ذلك، وفي رأيي أن هذه هي أفضل ترجمة، ولا تحتاج لتوضيح، ولا لهامش أو تفسير بين معقوفين.

والآن نستعرض الترجمة الصادرة عن مجمع الملك فهد عام ٢٠٠٩ بالمدينة المنورة، وهي ترجمة تقي الدين هلالي ومحمد محسن خان، وفيها نجد ترجمة الآية على النحو التالي :

«All praise and thanks are Allah's, the Lord of the 'Alamin (mankind, jinn, and all that exists)»

(١) محمد عبد الحليم، من مواليد مصر، قرية الأسدية التابعة لمحافظة الشرقية، وهو أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، ورئيس تحرير مجلة الدراسات القرآنية الشهيرة «journal of Quranic studies»، ومن أهم وأبرز أعماله، ترجمته للقرآن الكريم، والصادرة في أكسفورد عام ٢٠٠٤.

(٢) طريف الخالدي (١٩٣٨) مؤرخ فلسطيني، ولد في القدس، حاصل على دكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة شيكاغو، وفي عام ١٩٩٦ عيّن أستاذًا لكرسي آدمز للغة العربية بجامعة كمبريدج، له كتب عديدة في التاريخ، منها: «فكرة التاريخ عند العرب، من الكتاب إلى المقدمة»، وصدرت نسخته العربية عن دار النهار، بيروت، ١٩٩٢، وكتاب «الإنجيل برواية المسلمين»، وصدرت نسخته العربية، عن منشورات الجمل، بيروت، بغداد، عام ٢٠١٥، وكتاب «صور محمد، روايات النبي في الإسلام عبر القرون»، ٢٠٠٩، وترجمته للقرآن المشار إليها صدرت في لندن عام ٢٠٠٨.

أول ما يقابلنا من اختلافات مهمّة هو ترجمة كلمة الله، فنجدها عند الخالدي «God»، بينما استخدمت ترجمة تقي الدين هلالي ومحسن خان «Allah»، وهما مدرستان مختلفتان في ترجمة القرآن، فكلمة «الله» لا يُستعاض عنها بغيرها، وهذا ما عليه الأكثرية، فهي وحدها التي تفي بمعاني الألوهية في الإسلام.

ولا شك أن الترجمة الأنسب للسياق الديني على المستوى العالمي هي ترجمة الخالدي؛ فالله ليس اسمًا، وإنما معناه «الإله»، فليس هذا اسمًا لله بل هو الله نفسه؛ ولذا فإن الترجمة المناسبة هي التي تستخدم كلمة «God».

أما أن نقول في ترجمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

«All praise and thanks are Allah's, the Lord of the 'Alamin"»

فهذا خطأ في تصوري؛ إذ إن كتابة كلمة العالمين بهذا الشكل «Alamin» لا معنى له لمن لا يعرف اللغة العربية، ومن يعرفها ليس بحاجة إليها، فهذه الكلمة تزيد من صعوبة فهم النصّ لمن لم يكن على دراية باللغة العربية.

وفيما يتعلق باللفظة الوارد ذكرها بين معقوفين فهي تفسير محض، فهذا ما نجده في أغلب التفاسير، وبعض الدراسات المعنية بالتفسير؛ إذ المراد بكلمة «العالمين»: «الإنس والجن وكلّ موجود». ولهذا أرى أن الترجمة الأولى أفضل من الثانية، وإن كانت الثانية تعرض معلومات أكثر، إلا أنها ليست الترجمة المناسبة.

يبدو أن عدم الدراية الكافية بالمستويات الأسلوبية للغة المراد ترجمة القرآن إليها هو أحد أبرز الأخطاء التي يقع فيها المترجمون، وسأعرض لكم ترجمة أصدرتها دار نشر مرموقة، وقدّم لها الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، شيخ الأزهر آنذاك والمرجعية الروحية الشهيرة. وقد ذكر المترجم في مقدمته للترجمة

الإنجليزية «أن أيّ كلمة بسيطة كانت أو مركبة يُرْجَع إليها في قاموس أكسفورد لنجد مترادفات وعبارات مناسبة تفي بالمعنى المطلوب وتضفي عليها مسحة من الجلال يقتضيها الخطاب الإلهي».

والأخذ بمثل هذا المنهج يفضي مباشرة إلى كارثة، يتجلى هذا في المقدمة، وتحديدًا في ترجمة كلمة «نشكر» الشائعة على اللسان العربي، فبدلًا من استخدام «we thank» أو «we give thanks» نجد المترجم يبحث عن عبارات أخرى رنانة، وإن شابها تعقيد وغرابة لفظية وعفى عليها الزمن، وهذا ما اتضح في ترجمة المنتخب في تفسير القرآن للآية الثانية من سورة الفاتحة، حيث جاءت الترجمة على النحو التالي:

«Bosoms peep forth and answer thanks to God, Creator of the universe, for Whom are extolled the glorious attributes».

(أبو شبانة عبد الخالق همت، المنتخب في تفسير القرآن، بالعربية والإنجليزية، القاهرة، ١٩٩٣).

وهذه ترجمة ملغزة وإن صدرت عن حسن نية، وقد بذل المترجم وسعه، وأتى بأفضل ما لديه، لكن لأن المترجم ليس متمكنًا من اللغة المراد الترجمة إليها، فمن السهل الوقوع في مثل هذا الفخّ، ولعلّ هذا من أكثر إشكالات الترجمة شيوعًا وخطرًا.

كما أن من بين المغالطات الشائعة أن نُقْحِم على الكلمة العربية معنى واحدًا بغرض المحافظة على اتساق الألفاظ (فنستخدم كلمة واحدة في اللغة المنقول إليها النصّ)؛ فقد يؤدي هذا إلى إخراج اللفظة عن سياقها، وربما حدث تحريف بالغ في سياق الآية ذاتها.

وثمة مشكلة أخرى في هذا الصدد تكمن في الإبقاء على كثيرٍ من الألفاظ العربية داخل النصّ المترجم، من ذلك على سبيل المثال كلمة «العالمين»، وقد يكون السبب في هذا مفهومًا؛ إذ يحاول المترجم أن يبقى قريبًا قدر المستطاع من النصّ العربي، غير أن هذا الأمر يؤدي عادة إلى وقوع اللبس.

بقيت إشكالية أخيرة أود أن أتعرض لها هنا، ولا شك أنها تربك العديد من المترجمين، تتعلق هذه الإشكالية بمدى ضرورة محاكاة السجع والفواصل القرآنية. وكما هو معلوم لديكم أنّ كثيرًا ما تُخْتَتَم الآيات القرآنية بسجع معين، وقد شاع في الثقافة العربية قبل مجيء الإسلام جريان هذا اللون من السجع المقفّى على ألسنة الناس، وخاصّة الشعراء تلقيه عليهم قوى خارقة وفقًا للاعتقاد الشائع آنذاك. وهذا السجع مع الفواصل القرآنية كان من السمات الشعرية الجمالية التي تميز بها الخطاب القرآني، وهو أمر لم يحاول المترجمون المسلمون محاكاته، غير أن بعض المترجمين غير المسلمين قد سعى جاهدًا كي يحاكي أسلوب السجع القرآني. وفي المقابل، يميل المترجمون المسلمون إلى التركيز على ترجمة معاني النصّ، ويرون أن المزيد من المحاولات لا طائل من ورائها.

ولعلّ من أبرز الأمثلة على المدرسة الأخرى التي تسعى إلى محاكاة السجع ما فعله الشاعر الألماني المتميز «فريدريش روكرت» (١٧٨٨-١٨٦٦)[١]

(١) فريدريش روكرت (١٧٨٨-١٨٦٦) من أهم الشعراء الألمان في القرن الثامن عشر، ولد في اشفاينفورت، درس القانون والفيلولوجي في جامعة ستراسبورج وجامعة هيدلبرج، وحصل على الدكتوراه عام ١٨١١، ودرس في جامعة ينا، وفي ١٨٢٦ عين أستاذًا للّغات الشرقية بجامعة إيرلنجن، أشعاره مجموعة في كتاب بعنوان «قصائد مجموعة»، طبع عام ١٨٣٤، ومختارات طبعت عام ١٨٤٦، وإلى جانب كتابته للشعر فقد اهتم بترجمة عدد من الأشعار الفارسية والعربية، فهو مترجم مقامات الحريري (تحت اسم أطوار أبي زيد)، التي أضحت جزءًا من مطالعات واهتمامات المثقفين الألمان -وقارئي الألمانية- في هذا الوقت حتى نجد سيجموند فرويد يقتبس منها في أحد كتبه، كما ترجم أشعارًا لامرئ القيس، وقصائد لسعدي الشيرازي، كما ترجم سورًا وآيات مختارة من القرآن، عام ١٨٨٨.

الذي عاصر جوته (١٧٤٩- ١٨٣٢)[١]، وكثيرًا ما حاول في ترجمته الألمانية للقرآن أن يستخدم السجع المقفى ليحاكي ختام الآيات، وفي حالات أخرى يستغني عن السجع وإن تشبث بالأساليب المنظومة والمقفاة.

ربما لا زال الكثيرون منكم يذكرون «أنّا ماري شيمل»[٢] وكانت أستاذًا بجامعة هارفارد، وقالت عن ترجمة فريدريش أنها الترجمة الوحيدة التي تعكس القوة الشعرية وعمق النصّ الأصلي.

---

(١) يوهان فولفغانغ جوته (١٧٤٩- ١٨٣٢)، من أعظم شعراء ألمانيا، ولد في فرانكفورت، درس في كلية الحقوق في جامعة لابيزك، ونظم في شبابه عددًا من القصائد، من أعماله ما بلغ شهرة لا تضاهى؛ حيث تقف إلى جانب أعظم الأعمال الأدبية في التاريخ البشري، مثل روايته «آلام الشاب فرتر» التي نشرت عام ١٧٧٤ لتكون التجسيد الأبرز لتيار «العاصفة والاندفاع» وأحد أهم المؤثرات في الرومانسية الألمانية، ومثل ملحمة «فاوست»، ومثل سيرته الذاتية «من حياتي، شعر وحقيقة»، و«الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» الذي استوحى أشعاره من قصائد الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، وترجمت عدد من أعماله إلى اللغة العربية، فقد ترجمت «آلام الشاب فرتر» ترجمات عديدة، أولها ترجمة أحمد رياض، عن دار التقدم، القاهرة، ١٩١٩، وأشهرها ترجمة أحمد حسن الزيات، التي صدرت عن عالم الكتب عام ١٩٦٨ مع مقدمة لطه حسين، أما الديوان فقد ترجمه عبد الرحمن بدوي، وصدر عن المؤسسة العربية للأبحاث والنشر، كما ترجم بدوي «ملحمة فاوست»، وصدرت عن دار للثقافة للنشر، سوريا، ١٩٩٧، كما ترجمت سيرته، ترجمها مصطفى ماهر، وصدرت عن المركز القومي للترجمة، القاهرة، عام ٢٠١١.

(٢) أنّا ماري شيمل (١٩٢٢-٢٠٠٣)، مستشرقة ألمانية شهيرة، منذ عام ١٩٦٧ إلى تقاعدها في ١٩٩٢ شغلت منصب أستاذ كرسي الدراسات الهندو-إسلامية بجامعة هارفرد، اهتمامها الأساس بالتصوف، وهو الذي كانت تلقي حوله المحاضرات في هارفرد، من أهم كتبها «الأبعاد الصوفية في الإسلام»، وهو مترجم للعربية، ترجمه: محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، وصدر عن دار الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، ط١، ٢٠٠٦، وقد ترجمت سيرتها الذاتية للعربية بعنوان «الشرق والغرب: حياتي الغرب-شرقية»، ترجمها: عبد السلام حيدر ضمن المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

ونجد مترجمين مثل هارتموت بوبتسين[١] ممّن ندين لهم بالفضل في إخراج أحدث التراجم الألمانية للقرآن، يلجؤون إلى استخدام السجع حسبما راق لهم ذلك أو سَهُل عليهم استعماله بالألمانية، غير أنهم لم يحاولوا إقحامه، وإذا لم يستخدموا السجع يلجؤون إلى النثر المقفى والجناس والأساليب الشعرية الأخرى. فهم يصرون على استعمال السجع أو القافية إذا أرادوا للترجمة أن تعكس في ذهن القارئ العصري ما للأصل العربي من سحر، ولم يسعوا لمحاكاة السجع العربي غير أن لديهم رغبة في الإفادة من الشعر الألماني برمته كي يضفوا على النصّ الجلال والرصانة قدر الإمكان، وهدفهم بهذا الشكل لا علاقة له بالدين إلا أنه هدف جمالي محض.

العقبة الأخرى التي يصطدم بها المترجم تتعلق بكمّ الحواشي التفسيرية والتذييلات اللازمة للقارئ العصري. وهنا يحظى المترجم بقدر من حرية التصرف والاختيار؛ وعليه تتفاوت تعليقات المترجمين من الحواشي القليلة المبعثرة إلى الفقرات المطولة والمقالات حول تاريخ الآيات والتقييم الصحيح لها. وبالطبع يتوقف هذا الأمر برمته على القارئ المستهدف، ولا بد أن تكون هناك نسخة مترجمة تناسب القارئ العادي وتشتمل على الحد الأدنى من المعلومات المكملة، ومن الأنسب أيضًا أن تكون هناك إشارة للأبعاد الجمالية المتعلقة بالنصّ. من ناحية أخرى لا بد أن يكون هناك مجال لترجمة علمية تناقش الإشكالات الموجودة في النصّ العربي دون أن تغفل في الوقت ذاته الأبعاد الجمالية.

---

(١) هارتموت أوتو بوبتسين (١٩٤٦)، مستشرق ألماني، ولد في بريمن، حاصل على الدكتوراه في اللغات السامية من جامعة ماربورغ عام ١٩٧٤، عن أطروحة بعنوان «الأزمنة الفعلية في سفر أيوب»، درس اللاهوت وعلم الأديان واهتم باللغات الهندية والسنسكريتية والعبرية فالعربية، وأصبح أستاذًا لكرسي معهد الاستشراق في جامعة إرلنغن، زار عددًا من الدول العربية مثل سوريا ولبنان والأردن وتونس ومصر، وترجمته للقرآن صدرت عام ٢٠١٠، في ميونيخ.

وفي نهاية المحاضرة أحبّ أن أسوق لحضراتكم بيتًا من الشعر لفريدريش روكرت، وليس ترجمة للقرآن وإنما هو شعر عن القرآن، وسأعطيكم الترجمة الإنجليزية أولًا:

«القوة السحرية لا بد أن تكون أصيلة في شيء كالقرآن يتعلق به العالم كلّه مفتونًا بسحره»، والبيت باللغة الألمانية يقول:

Wo Eine Zauberkraft muß seyn in dem, woran
Bezauberteine Welt
hängtwie am Koran.
(Die Weisheit des Brahmanen)

إذا نظرنا إلى الأصل الألماني وجدناه يفقد سحره وبريقه عند ترجمته، فإذا كنا نفشل في ترجمة بيت من الشعر حول القرآن ترجمة جمالية تفي بمعناه، ففي هذا دلالة قاطعة على استحالة ترجمة النصّ القرآني على نحوٍ يفي بحقّه.

شكرًا جزيلًا

الحوار بعد المحاضرة

س: بما أني نشأت في القارة الهندية، فلستُ مسلمًا متدينًا، بل لقد تركت الإسلام، وقد قرأت العديد من تفاسير القرآن الكريم التي كتبها علماء هنود، وبعد انفصال باكستان أقدم عددٌ من العلماء المسلمين على ترجمة القرآن، وبدا واضحًا في القارة بأكملها أنه عند الشروع في الترجمة ينبغي وضع النصّ العربي أولًا ثم الترجمة تحت كلّ سطر، لا أعرف ما إذا كانوا قد غيروا ذلك الأمر أم لا، لم أذهب إلى الهند منذ فترة. بالنسبة لي -على ما يبدو- أن التنشئة هناك جعلت هؤلاء الناس يبذلون جهدًا وطاقة هائلة للحفاظ على القرآن بهذه الطريقة وكذلك ترجمة معاني القرآن؛ لذلك لا يتم العبث بالنصّ القرآني الأصلي.

وقد تفضلت بذكر معظم الترجمات التي جاءت من الشرق الأوسط أو من الغرب، فهل سبق وأوليت الاهتمام للترجمة القادمة من القارة الهندية؟

شتيفان فيلد: من المؤسف أن إجادتي للغة الأردية ضعيفة؛ لذا لا أستطيع قراءة تلك الترجمات بالأردية. لديّ معرفة بتلك الترجمات وكذلك بمؤليفها، لكن لم أحاول الحكم على جودتها، أعتقد أن المشاكل التي تواجه (...) و (...) هي نفسها التي يجب مواجهتها في معظم الحالات الأخرى.

لا أظن أن ثمة اختلاف في المبدأ ذاته، وأن مشاكل المترجمين ليست متطابقة ولكنها متشابهة للغاية، سواء كانت اللغة أردية أو إندونيسية، أو ألمانية أو فرنسية، فمكمَن الإشكال في طريقة الجمع، في ترجمة النصّ بشكلٍ مفهوم للقارئ ويعكس في الوقت ذاته جمال ورونق النصّ الأصلي.

ربما تستعصي هذه الإشكالية على الحلّ، وليس هناك ما يمكن فعله في هذا الصدد، لكن جميع المترجمين يحاولون فعل ذلك، وأعتقد أن الترجمة الهندية هي نموذج من ضمن نماذج عديدة.

س: (...).

شتيفان فيلد: الحلّ الذي يطرحه العالِم المسلم التقليدي هو التأكيد على أن الشخص يقصد بالترجمة مجرد نقل لمعنى الكلمات، ولا يدعي ترجمة سحر اللغة العربية الفصحى ووقعها على الجمهور العربي، هذا هو الفرق الرئيس. يمكن ترجمة المعاني إذا كنت تستطيع استخلاص المعني من النصّ، وتقول أن هذا هو المعنى وسأترجمه، لكن إيقاعه السحري وعظمة روح النص ووقعه على الجمهور العربي المسلم لا يمكن نقله، فتصوري أن هذا هو الحكم العادل.

لكن يسعى المترجمون قدر استطاعتهم لإضفاء رونق على المعاني المترجمة وتصوير شيء من تأثير هذا الوحي على العقل العربي المسلم، ولكن هذا من قبيل المعركة المحسومة التي لا مجال للفوز بها، ومع ذلك تستمر المحاولات دومًا.

س: من المفهوم إلى حدّ ما السبب الذي يدفع المترجمين إلى كتابة كلمة معاني في عنوان الترجمة، ولكن بالنسبة لي، يعد هذا الأمر مُعضلًا وغير مناسب؛ لأنه كما قال نصر حامد أبو زيد، هل نترجم سوى المعنى؟ فبطبيعة الحال، لن تكون ترجمة أي نصّ من لغة إلى أخرى سوى ترجمة لمعنى ذلك النصّ. والاعتراض الآخر أنهم بفعلهم هذا كأنهم يجزمون بالوقوف على المعنى الذي يقصده الربّ، وهذا في تصوري موقف يفتقد للاحتشام.

شتيفان فيلد: نعم، أظنّ أنه من التواضع بمكان أن يصرّح الشخص بأنه لا ينقل سوى المعنى، لكن يمكن حينها القول: إذا كنت تعرف ما تعنيه الكلمات فلا بد

أنك ماهر حقًّا. وعلى الجانب الآخر، إنّ نص الوحي الذي تتم ترجمته لا يبقى وحيًا بعد هذا.

إذًا، لا بد أن تكون هناك بعض العناصر القابلة للترجمة، ويجب أن تكون واضحة، لكن المفسرين اختلفوا على مرّ العصور حول ما تعنيه بعض الآيات وما لا يُراد بها، بل إنّ القرآن نفسه في بيانه لتفرده يؤكد على أن الآيات القرآنية بعضها محكم والآخر متشابه، دون أن يبيّن المتشابه والمحكم منها.

أعتقد أن هذه العبارة مثيرة للاهتمام وهي جزء مما ذكر (...)[1] عن المرجعية الذاتية للقرآن؛ بل هي واحدة من أكثر عبارات المرجعية الذاتية إثارة للاهتمام، ذلك أن القرآن نفسه يصرّح بأن بعض أجزائه يستعصي على الأفهام، في حين يمكن للجميع فهم البعض الآخر. فهذه علامة مثيرة للاهتمام تعطينا فكرة عن مدى صعوبة الترجمات فلا مجال أمامها سوى أن تكون ترجمة تفسيرية، وعلى المترجم أن يتقيد باتجاه معين، وتفسيرٍ واحد. والنصّ العربي موجود وتتعدد أوجه تفسيره، ولا يمكن نقل جميع وجوه القرآن بحالٍ من الأحوال.

س: ربما يكون تعليقي هنا ملاحظة أكثر من كونه سؤالًا. من المثير للاهتمام أن يُترجم العهد القديم والعهد الجديد بشكلٍ منتظمٍ ومع ذلك يحتفظان بالمنزلة ذاتها والاعتبار في اللغات الأخرى، فلدينا العهد القديم باليونانية، والعهد الجديد باللاتينية، بل والترجمة الإنجليزية التي يعتقد المسيحيون الأصوليون أنها منزهة عن الخطأ، وجميعها كلمة الله، على الرغم من أنها مكتوبة بثلاث لغات على الأقل. إنها ملاحظة مثيرة للاهتمام عن الأديان الإبراهيمية الثلاثة ولغاتها وموقفها المختلف إزاء النصّ الأصلي. فهل لديك تعليق في هذا الصدد؟

(١) لم نستطع استيضاح الاسم سماعًا، لكن ربما يقصد دانييل ماديغان صاحب كتاب «الصورة الذاتية للقرآن»، والذي تحدث عنه في المحاضرة السابقة، انظر: «ثلاث محاضرات حول القرآن، (٢): لغة القرآن، هل العربية لغة مقدسة؟»، ترجمة: حسام صبري، ص٢٨، على هذا الرابط: https://bit.ly/2SsDNez.

شتيفان فيلد: أنت محقّ في ذلك. إذا نظرنا إلى العهد الجديد المكتوب باليونانية وجدنا علماء اللاهوت يؤكدون أنه مكتوب بلغة سلسة في متناول أفهام الجميع، فليس مكتوبًا بلغة رصينة لا يفهمها إلا عالم، وإنما لغة بسيطة أشبه بلغة الحوار اليومية. أما القرآن فمختلف تمامًا؛ حيث إنّ اللغة المستخدمة فيه هي أرقى لغة ممكنة لأنها وحي إلهي، لذا فهما نهجان مختلفان تمامًا للغة، فالعربية هي القرآن فبها نزل؛ لأنه نزل على العرب، بينما لا يقول أي عالم متخصص في العهد الجديد أنه وحي سماوي لأنه مكتوب باليونانية.

أعتقد أن العبرية تقترب من الرؤية الإسلامية/العربية في نظرتها للكتاب السماوي، لكن القرآن يتميز بنزعة نحو السمو فوق سائر اللغات، وهذا الأمر متأصّل في جميع الأديان الجديدة التي ترى نفسها أفضل من غيرها، لكن في حالة القرآن الكريم نجد هذا الأمر أحد سمات المرجعية الذاتية للقرآن.

س: هل من إشارة إلى الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة وأهل الحديث حول الخطاب الإلهي، وهل تعرضوا لمسألة إمكانية ترجمة القرآن في العصر الحديث؟

شتيفان فيلد: حسبما أعلم، لم يتعرض الأشاعرة ومن خالفهم إلى مسألة ترجمة القرآن. وقطعًا كانت منزلة القرآن، وهل هو مخلوق أم غير مخلوق؛ من أكثر القضايا الشائكة التي دار حولها جدلٌ كبيرٌ في إطار تطوّر الفكر الديني الإسلامي. وبنحوٍ ما فإن جملة ما يدور من نقاشات وجدل حول التعليل اللاهوتي لشخص المسيح وعمله قد انعكس في النقاش القائم بين المسلمين حول القرآن، هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ هل هو قديم بِقِدَمِ الله أم لا؟ وقد تفاوتت الرؤى والمقاربات في تناول هذا الأمر، ولا علم لديّ إن كان لمسألة الترجمة دور في هذا النقاش.

س: تتجلى مسألة الإعجاز في صلب قضية إمكانية الترجمة، فهل يمكن ترجمة هذا النصّ المعجز؟ يرى أبو حنيفة جواز ترجمة القرآن، فمكمن إعجاز القرآن في معناه ومن ثَمّ يمكن ترجمته أثناء الصلاة، وإذا كنت حديث عهد بالإسلام ولست على دراية بالعربية، فيكفيك إعجاز المعنى لا الشكل. وثمة جدل دائر بين أروقة التصوّف في القرن الثامن عشر بشأن الشكل ومدى أهميته للمضمون وارتباط كلّ منهما بالآخر، كما أظنّ أن هناك قضية أخرى على نفس القدر من الأهمية وبخاصة في العقيدة الأشعرية، ألا وهي نظرية «الكلام النفسي»، فكلام الله معنى قائم بالنفس يستوي فيه البشر جميعًا، ويستوي فيه الأمر والنهي والخبر والإنشاء.

وهذا ما تناولته أروقة التصوف في القرن الثامن عشر، عندما قالوا إن اللغات جميعًا بوسعها تفسير أي شيء تستطيعه العربية، ويبدو أن مسألة العلاقة بين أصول الدين والإعجاز والخصائص البشرية المشتركة تمثّل إشكالية كبرى.

شتيفان فيلد: لم يخطر لي من قبل أن أسوق قضية (الكلام النفسي) في هذا السياق، ولا شك أنها فكرة رائعة. يرى المعتزلة أن المرء بوسعه أن يأتي بشيء أفضل من القرآن من ناحية الأسلوب، لكن استقر الرأي على أن هذا القول كفر[١]، ولم يعد محلًّا للنقاش بعدها، لكن عاد علماء المسلمين اليوم لطرح هذه الأسئلة من جديد.

س: أتساءل عن مدى إمكانية استكشاف نوع من البعد التطوري (دياكروني)، وإلى أي مدى تعدّ قضية ترجمة القرآن من القضايا العصرية؟ لا شك أنها أثيرت في الماضي، ويدهشني أن تكون إشكالية عصرية كذلك.

---

(١) ذكرنا هذا الأمر تفصيلًا في المحاضرة السابقة تعليقًا على حديث فيلد عن المعتزلة ونظرتهم للقرآن وموقف بقية الفرق الإسلامية منهم، وأوضحنا ما في كلامه من افتقاد للدقة، فلينظر هناك: «ثلاث محاضرات حول القرآن (٢): لغة القرآن، هل العربية لغة مقدسة؟»، ص١٣، على هذا الرابط: https://bit.ly/2SsDNez.

كان هناك عدد هائل من الترجمات التي وضعها مسلمون من غير العرب، إلا أن أول ترجمة للقرآن بلغات جنوب آسيا ظهرت للنور في القرن الثامن عشر على يد شاه ولي الله دهلوي (١٧٠٣- ١٧٦٣)[١] الذي ترجم القرآن إلى الفارسية، ثم وضع ابنه شاه رفيع الدين دهلوي (١٧٥٠- ١٨١٧)[٢] أول ترجمة للقرآن إلى اللغة الأوردية. فهذه الترجمات ظهرت بعد مرور ما يقرب من ٥٠٠ عام من انتشار الإسلام وقيام مجتمع إسلامي كبير.

ولا بد أن يشير هذا إلى أمرٍ ما، بل يدلّ على أمرين: إما أن الجميع قد تعلم العربية، أو أن فهم القرآن فهمًا تامًّا لم يكن ضروريًّا لغالبية المسلمين ولا شرطًا ليصبح المرء مسلمًا. كما أعتقد أن هذا يشير إلى شيئين هما: الطقوس الدينية، والبعد الدلالي. فطالما تحققت الطقوس الدينية بشكلٍ صحيح واستطاع الناس تلاوة القرآن، فهذا القدر يكفي لتحقيق المقاصد الإيمانية. أما ذلك القطاع من المجتمع ممن حظي بمعرفة العربية يكون الوقوف على معاني القرآن فرض كفاية في حقّهم، وإلا فرض عين إذا لم يوجد في العالم الإسلامي من هو على دراية باللغة العربية.

أما في الوقت الحاضر، فقد بات الأمر مختلفًا بفضل التوسّع في عملية التعليم الأساسي، ونشأة الأنظمة الاستعمارية وظهورها من ناحية، علاوة على شيوع

(١) شاه ولي الله الدهلوي (١٧٠٣- ١٧٦٢): محدِّث وفقيه ومتصوّف هندي، وهو من رواد الإصلاح في الهند في القرن الثامن عشر، وله عددٌ من المؤلفات التي تدلّ على اتساع اهتماماته وعمقها الشديد، أهمها: ترجمته للقرآن للغة الفارسية والمسماة بـ «فتح الرحمن»، وكتاب «الفوز الكبير في أصول التفسير»، و«فتح الخبير بما لا بد من حفظه في علم التفسير»، وكتابه «حجة الله البالغة»، وهو من أهم الكتب المعاصرة على الإطلاق في قضية أسرار الشريعة وحكمها، وكتابه «عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد»، ورسالة صغيرة مهمّة بعنوان «المقدمة في قوانين الترجمة».

(٢) شاه رفيع الدين الدهلوي (١٧٤٩- ١٨١٧): عبد الوهاب بن ولي الله الدهلوي، شاعر ومتصوف هندي، وهو ابن شاه ولي الله الدهلوي، وهو أول من ترجم القرآن للأردية، ومن آثاره: «دمغ الباطل»، و«أسرار المحبة»، وله مطوّلة في المديح النبوي.

مبدأ حقّ المؤمنين جميعًا في فهم النصّ، علاوة على النشاط الدعوي الذي شهدته المجتمعات، فأصبحت طباعة الترجمة تستلزم جمهورًا متعلمًا. أتساءل إذا كانت قضية الترجمة تمثّل عرضًا من أعراض التحوّل في النظرة للقرآن وطبيعته ومكانته في المجتمع الإسلامي والمجتمع برمّته، وبطريقة تمثّل انفصالًا جذريًّا عن معناه باعتباره نصًّا مقدسًا؟

شتيفان فيلد: لم تكن ثمة أهمية لترجمة القرآن في القرون الأولى، ثم بدأ التهافت على الترجمة مع إدخال الصحافة المطبوعة، وهذا بالطبع حداثة. ومنذ ذلك الحين بدأ هذا النقاش.

لقد قلتَ في سؤالك أنه في حالات عديدة وأماكن عدّة لم يكن المسلم العادي مطالبًا بالإلمام باللغة العربية ليتلو القرآن، واقتصر ذلك على العالم أو الإمام، أوافقك الرأي تمامًا في أن هذا تطور جديد، كذلك الحال في ترجمة القرآن إلى لغة الإشارة، وهذا مثال واضح على الحداثة ومواكبة العصر.

س: أتساءل إلى أيّ مدى تعتقد أن الترجمات الخاطئة للقرآن الكريم كان لها أثر في الصورة النمطية المعادية للمسلمين ومشاعر العداء لدى غير المسلمين؟

شتيفان فيلد: عددٌ غير قليل من الترجمات ظهر جرّاء وجود انطباع لدى البعض أن كثيرًا من الترجمات لها دوافع خفيّة في إبراز القرآن بصورة تتقاصر عن شأو العهد الجديد أو العهد القديم. ولما كان العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر يشهد طفرة فيما يخصّ الصحف والدوريات، حينها عملت المؤسسات التبشيرية على إظهار القرآن في منزلة دونية عن سائر الكتب المقدسة الأخرى، وكان لهذا الأمر دوافعه السياسية والاستعمارية. أما اليوم فقد بات العالم الإسلامي على طريقه للإصلاح، وأصبح لديه دوريات جديرة بالاحترام. لكن في القرن التاسع عشر رأى عددٌ غير قليل ضرورةَ الحيلولة بين الناس في الهند والعالم العربي

وغيرها من الدول وبين الدين الإسلامي، وحثّهم إلى اعتناق المسيحية. نعم لم يكن هذا هو الاتجاه الوحيد السائد، لكنه كان قائمًا، ولذا كانت هناك دوافع سياسية وراء ذلك معادية للإسلام.

س: برأيك، ما موقع ترجمات القرون الوسطى، والترجمات التركية الفارسية؟

شتيفان فيلد: كانت هناك ترجمات فعلًا، فقد تُرجم تفسير الطبري، وهو برأيي أهم تفاسير القرآن، وسمعت أنه تُرجم وطُبع باللغة التركية الحديثة.

لا أعلم ما الأثر الذي أحدثته هذه الترجمات، ولكن الأمر الأكيد هو أن العلماء كانوا في غنى عنها؛ لأنهم كانوا بطبيعة الحال يعرفون اللغة العربية. والذي أجزم به هو أن الترجمات كانت موجودة في ذلك الوقت.

أما السؤال عن التأثير الذي أحدثته هذه الترجمات، فليست لديّ إجابة على ذلك. لكن، أميل إلى الرأي القائل بأنه بعد الانتهاء من هذه الترجمات، كان المشايخ والعلماء في الإمبراطورية العثمانية في غنى عن هذه الترجمات. فالأثر الذي تحدثه الترجمات الآن -في رأيي- هو أكبر بكثير مما كان عليه في القرون الوسطى.

س: (...).

شتيفان فيلد: الترجمة ليست بالمجال الخصب الذي يكثر فيه الإنتاج أو النسخ، فلم يكن هناك نسخ كثيرة مما ترجم.

س: (...) النقطة الثانية، إذا وضعنا نصب أعيننا الترجمات المعاصرة في العالم الإسلامي وأخذنا على سبيل المثال الترجمات الأردية، يمكن أن نحصي عددًا كبيرًا منها؛ وذلك لأن كلّ تفسير كتب بالأردية يحوي في داخله ترجمة للآيات. لكن الأمر الذي لن تجده في شبه الجزيرة الهندية هو ترجمة مستقلة بذاتها عن التفسير، فإذا ذهبت إلى أماكن بيع الكتب وسألت عن ترجمة للقرآن بالأردية فلن تجد طلبك، ولكنك ستجدها في ثنايا التفسير.

وهذه الترجمة المدرجة بين السطور هي الخطوة الأولى في مشروع التفسير، وتبدو هذه الترجمة غير مرتبة أسفل النصّ العربي. فكلّ كلمة في النصّ الأصلي توضع أسفل منها ترجمتها، بحيث يكون على القارئ إعادة تركيب الجملة.

ليس هناك ما يدل على أن هذا الأمر قُصد به محاولة تفسير النصّ؟

سائل آخر: أعتقد بأن وضع الترجمة بين السطور هو في حد ذاته إشارة إلى إشكالية ترجمة النصّ القرآني، أي أن وضع الترجمة بهذا الشكل ما هو إلا محاولة لتفادي ذلك النوع من الترجمات الذي يترتب عليه عدد من التساؤلات الذي يسعى الدكتور فيلد لبحثها.

على الناحية الأخرى تمامًا، يمكنك أن تجد في تركيا الآن العديد من النسخ المصغرة من القرآن بسهولة، ولكن لا يطلق عليها أحد كلمة «ترجمة»، ولكنهم يستخدمون لفظ «مآل»، وهي نسخة من النصّ نُقلت إلى اللغة التركية الحديثة، دون الاستعانة بمواد تفسيرية، ويعدّ هذا أحد الحلول التي توصلوا إليها في العصر الحديث.

لا أعلم إذا كان هذا التمييز يستند إلى رأي قديم، لكن ربما يعترض البعض على وضع الترجمة بين السطور، ولكنه وسيلة لتجنب نقل النصّ بشكل كامل، وهو ما يعرضنا لإشكالية الترجمة، بينما تقدّم الترجمة الموضوعة بين السطور مقابلًا لكلّ كلمة؛ فهي تقدّم للقارئ ترجمة لأجزاء الجملة الموجودة في النصّ القرآني، ولكنها لا تعيد صياغة هذه الجمل بأيّ لغة أخرى.

سؤالي عن الترجمات اللاتينية بوصفها جزءًا من (...) في بدايات القرن الثاني عشر، وهي قديمة لدرجة أن بعض أعضاء الفريق الذين شاركوا في الترجمة كانوا من مسلمي أسبانيا.

شتيفان فيلد: هناك عالم ألماني هو الوحيد الذي ألّف كتابًا ضخمًا عن هذا الموضوع، والكتاب بعنوان: «القرآن في عصر الإصلاح الديني»، وهو مُؤَلَّف جيد ورصين، يقع في ٨٠٠ صفحة.

الأمر المدهش، أنه خلال المناقشات التي أثيرت بين من اعتنقوا البروستانتية وبين أولئك الذين حافظوا على مذهبهم الكاثوليكي، كان كلّ طرف يرمي الآخر بوقوعه ضحية لأثر الإسلام؛ فوصف البروتوستانت البابا والكاثوليك بأنهم كما لو كانوا مسلمين يخفون إسلامهم. وقال الفريق الآخر الشيء ذاته. فهذا استخدام في الجدل العقائدي لم يكن له علاقة بالواقع.

وكانت هناك النسخة الشهيرة من القرآن التي حاول الفينيسيون بيعها في الإمبراطورية العثمانية، ولكنها أُحرقت، وكلّ هذه الأمور وردت في (...). ربما كان على أحدهم أن يترجمها إلى الإنجليزية.

س: أريد أن ألقي الضوء على ترجمة بعينها وهي ترجمة إلى الفارسية مكتوبة بأسلوب شعري. (...).

فالشيخ يتلو الآية بالعربية ثم يأتي أحدهم ويقرأ الترجمة الفارسية في صورة شعرية بديعة.

شتيفان فيلد: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام المثير للاهتمام.

س: أشعر بالتواضع عند الوقوف أمام العلماء، ولكني أتفق مع دكتور فيلد بأن القرآن لا يمكن ترجمته؛ لأنه قبل أيّ شيء لديّ شعور بأن لغة القرآن تعبر عن النظرة العالمية للكون، من هنا تصبح عملية الترجمة صعبة للغاية، فمن الصعب جدًّا أن ينغمس شخص ما في عالم مختلف عن عالمه.

وأنا حقيقة معجب بما قلته حول المشافهة أو التلاوة التي تتعلق بعالم الأصوات، وعالم المادة، وخصائص اللغة في تفسير الظواهر الكونية وحالة النفس الإنسانية وكلّ ما هو محيط بها؛ لذلك، كلّ ما يمكن أن نفعله هنا هو فقط محاولة فهم معانى القرآن في هذه الحالة، ولكني أريد أن أعرف منك كيف كانت الهندسة وعلوم الفلك والفضاء تشغل حيزًا في الإسلام؟ كيف انشغل الإسلام بكلّ هذه الأسئلة التي تدور حول الطبيعة وما وراء المادة ولماذا؟ لماذا اخترع المسلمون الأعداد؟ كيف كان لهم السبق في وضع علم الجبر وكلّ هذه التفسيرات العظيمة المجردة للكون؟

شتيفان فيلد: هذا السؤال صعب للغاية، دعني أبدأ من حيث انتهيت أنت.

كانت الثقافة العربية والإسلامية إبان العصر العباسي منفتحة بشكلٍ كبيرٍ على دراسة المسائل الرياضية والهندسية والفلكية وما إلى ذلك. لست متأكدًا من أن هذا هو ما يقصده القرآن عند ذكر الآيات -آيات الله- المتمثلة في الطبيعة والخلق والمطر والشمس والقمر، فعلى الأرجح هناك صلة بين هذه الآيات وبين دراسة هذه العلوم.

ولكني أعتقد بأن كون القرآن قد أشار إلى آيات الله، فإن الإنسان يستطيع بطريقة ما أن يتحسس آيات الله في الكون؛ عندما يرى قطرات المطر وهي تتساقط، وعند رؤية الشمس في موضعها، فهذه الأمور التي ذكرها القرآن مثيرة وتدفع للبحث، ويستطيع المسلم من خلال الظاهرة الكونية أن يتحسس آيات الله. وهذا الأمر مهم للغاية.

الأمر الآخر هو قابلية النصّ القرآني للترجمة. القرآن يستعصي على الترجمة، لكن لا مفرّ من ترجمته طالما وُجِد مسلمون. وهو كتاب عتيق يوغل في القِدم يومًا بعد يوم، ولا بد من ترجمته وتفسيره، فهي مسألة جدلية؛ فلا يمكن ترجمة القرآن، ولكن لا مفرّ من ترجمته.